مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (٦) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (6) 2026

الانزياح التّركيبي [دراسة تحليليّة نصيّة في قصيدة كفى بك داء للمتنبي]

د. عبد اللطيف ياسين سليمان *

(تاريخ الإيداع ١٢/١١ /٢٠٢٥. قُبِل للنشر في ٣/١٦ /٢٠٢٦)

□ ملخّص □

يسعى هذا البحث إلى دراسة الانزياح النّحوي دراسة نظريّة تهدف إلى معرفة مظاهره بدقّة وشمول، من خلال تعريف الانزياح لغة واصطلاحاً، والكلام على أشكال الامتداد التراصفيّ، ومخالفة تراتبيّة الجملة التي يحققها هذا النّمط من الانزياح، ساعياً من وراء ذلك إلى محاولة معرفة مظاهره التركيبية بدقّة، وإدراك قدرته على توليد دلالات ومعان إبداعية تثري النّصّ الأدبيّ، وتمدّه بشحنات وطاقات دلالية واسعة، وترتقي به من النّصّ الخبر إلى النّصّ الأثر ،وتبعده عن سطحيّة التّعبير، وبعد ذلك ينتقل إلى دراسة قصيدة كفى بك داء للمتنبّي دراسة تحليليّة نصيّة وفقاً لما تقدّم، بهدف تطبيق المعطيات النّظريّة لهذا النّمط من الانزياح على نصّ أدبي زاخر بدلالات متنوّعة متولّدة عن هذه المظاهر الانزياحيّة. .

الكلمات المفتاحيّة : الانزياح، المتنبي، نصيّة، كافوريات، النّحوي، التّركيبي .

* دكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها، جامعة اللاذقية، سورية، اختصاص البلاغة والنّقد، بريد الكتروني
abdallatefsuliman360@gmail.com

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (٦) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (6) 2026

Syntactic Deviation [An Analytical Textual Study of Al-Mutanabbi's Poem "Kafa Bika Da'a"]

Dr.Abdul Latif Yassin Suleiman*

(Received 11/12 /2025. 16 /3/2026)

□ ABSTRACT□

This research aims to study syntactic deviation theoretically, seeking to understand its manifestations precisely and comprehensively. This is achieved through defining deviation linguistically and technically, discussing the forms of semantic extension and the disruption of sentence hierarchy that this type of deviation creates. The research then seeks to accurately identify its syntactic manifestations and recognize its capacity to generate creative meanings and connotations that enrich the literary text, imbuing it with broad semantic energy and elevating it from a mere statement to a text of effect, thus moving it beyond superficial expression. Following this, the research proceeds to an analytical textual study of Al-Mutanabbi's poem "Kafa Bika Da'a," applying the theoretical framework of this type of deviation to a literary text rich with diverse meanings generated by these deviant manifestations.

Keywords: deviation, Al-Mutanabbi, textual, Kafuriyyat, grammatical, syntactic

* PhD in Arabic Language and Literature, from Tishreen University, Syria, majoring in Arabic Rhetoric and Criticism. abdallatefsuliman360@gmail.com

مقدّمة :

لقد حظي الدّرس النّقدي والبلاغي بشكل عامّ باهتمام كثير من الباحثين، ولاسيّما الأسلوبيّين الذين نظروا إلى اللغة في مستويين : الأوّل مستواها المثالي في الأداء المعياري المألوف، والثّاني مستواها الإبداعي المعتمد على اختراق هذه المثاليّة، وانتهاكها، ويهدف من خلال ذلك إلى شحن الخطاب بطاقات أسلوبيّة جماليّة تُحْدِث تأثيراً في المتلقّي، ويتجلّى هذا الخرق من خلال مظاهر عدّة على المستوى الاستبدالي تارة، وتارة على المستوى التّركيبي، وهذا ما حدا بي لاختيار [الانزياح النّحوي] بوصفه فرعاً من فروع الانزياح التّركيبي من أجل البحث عن بعض الخصائص المائزة للّغة الأدبيّة، بوصفها لغة مرنة لها أثر بالغ على مسار البحث البلاغي الحديث؛ محاولاً كشف العلاقة الجدليّة بين الحقلين النّحويّ والبلاغيّ، وتطبيق ذلك على إحدى كافوريّات الشاعر المتنبّي.

منهج البحث :

يعتمد البحث المنهج الوصفي بوصفه أداة فاعلة في قراءة النّصّ من داخلهّ وليس من خارجه، أو من خلال إسقاط قيم خارجة عنه عليه، أو من خلال قراءته قراءة مسبقة تحدّ من انطلاقته الإبداعيّة، ومستواه الفنّي .

الفصل الأوّل : الجانب النّظري :

أولاً : الانزياح لغة واصطلاحاً :

١- الانزياح لغة :

بداية كان لزاماً علينا أن نبحث عن جذر المصطلح (انزياح) في ثنايا أمّهات الكتب، كون الصّورة المعجميّة لأيّ لفظ عربي تمثّل مرجعيّته الأولى:

جاء في لسان العرب : " نزحَ الشّيء ينزحُ نَزحاً ونزوحاً : بَعُدَ ... ونَزَحتِ الدّارُ فهي تنزحُ نزوحاً إذا بَعُدَت ... ونَزَحَ البئر ينزحها ويَنزَحُها نزحاً، إذ استسقى ما فيها حتّى ينفد " [١] .

فالمعنى اللغوي، هنا، يدلّ على حالة البعد والخروج،

٢- الانزياح اصطلاحاً :

ممّا لا شكّ فيه أنّ معرفة المصطلح لأي علم يشكّل العتبة الأولى لإدراكه، والتّعرّف عليه، ومن ثمّ الإحاطة بجوانبه كافّة، وما تجدر الإشارة إليه أنّنا لم نكن بصدد تأصيل مفهوم الانزياح، وإنّما لا بدّ من التّطرّق لبعض القضايا، لعلّها تكون مهاداً يوصلنا إلى موضوع بحثنا [الانزياح النّحويّ] .

" يعدّ مصطلح الانزياح من المصطلحات الشّائعة في الدّراسات الأسلوبيّة المعاصرة، كما قُدّمت غالباً في العالم الغربيّ، وهو علم قائم بذاته على (نظريّة متجانسة ومتماسكة)، كونها تستند إلى اللسانيّات، واللسانيّات الأدبيّة، على اختلاف تياراتها المتباينة طوراً والمتشاكلة أطواراً أخرى .

وربما يكون جان كوهن أوّل من خصّ هذا المصطلح بحديث مستفيض في مجال حديثه عن لغة الشّعر، كإحدى المحاولات النّظريّة الجادّة في حقل الدّراسات البلاغيّة والشّعريّة، من هذا المنظور وأخذاً بعين

[١] ابن منظور. لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، مادّة (نزح) .

الاعتبار الشّروط المعرفيّة والمنهجيّة الصّارمة التي تفرضها الشّعريّة على نفسها، تحدّث الباحث عن الشّعريّة كعلم، أو اتّجاه جديد، مثيراً نظريّة الانزياح " [٢] .

إنّ الأسماء المتعلّقة بظاهرة الانزياح متعدّدة، وإن كانت في معظمها تشير إلى ظاهرة واحدة، فقد سُمّي بالعدول، وهو اسم مأخوذ من الموروث البلاغي والنّقدي العربي القديم، وكذلك التّشويش، والبعد، والفارق، والخروج، والخرق، والابتعاد، والشّذوذ ... والانتهاك، والمجاوزة، والاتّساع، وهذا التّعدّد في المصطلح – فوضى المصطلح – إنّما ينمّ على القلق الذي يعيشه المصطلح النّقدي العربي المعاصر، وهذا إشارة إلى عدم الاستقرار، وتوكيد لظاهرة الانفلات، والتّشتّت التي يعاني منها المصطلح بشكل عامّ [٣] .

فالدّراسات الأسلوبيّة في النّقد العربيّ، وإن كانت حديثة العهد، ومستمدّة من التّفاعل الحضاري مع الغرب، لا تعني عدم وجود بدائل، أو ملامح، ومقاربات أسلوبيّة في نقدنا القديم، ومن ثمّ القول بالاستمراريّة بين الموروث القديم، والأسلوبيّة الحديثة، فظاهرة الانزياح قديمة – تحت مصنّفات متعدّدة – مثل المجاز، والضّرورة، والاتّساع، وهي من أكثر المصطلحات وروداً، خصوصاً في مصنّفات القدماء، للدّلالة على كلّ استخدام ينتهك النّمط التّعبيري المألوف، ويتخطّى ما جرت العادة باستعماله.

ومن أهمّ الأسماء التي أطلقت على مثل هذا الإجراء في استخدام اللّغة عند القدماء، مصطلح (العدول) الذي أشار إليه ابن جنّي، والفارابي، وابن سينا، والجرجانيّ، والسّكاكيّ، ... وكذلك مصطلح التّغيّر، والانحراف، والكذب، والتّخييل، وإعمال الحيلة، ومنافرة العادة، وغيرها ... [٤] .

فإذا أجمعنا أنّ هذه التّسميات قديمها، وحديثها تشير إلى مسمّى واحد وهو (الانزياح)، فما هو تعريف الانزياح ؟ وما هو معياره ؟ .

إنّ ظاهرة الانزياح تشكّل في نظر الدّارسين الأسلوبيين خرقاً، وانتهاكاً للاستخدام العادي للغة، وما ذلك إلاّ لأنّ الأسلوبيين نظروا إلى اللغة في مستويين : الأوّل : مستواها المثالي في الأداء العاديّ، والثّاني : في مستواها الإبداعيّ الذي يعتمد على اختراق هذه المثاليّة، وانتهاكها، ويهدف من خلال ذلك إلى شحن الخطاب بطاقات أسلوبيّة جماليّة تحدث تأثيراً خاصّاً في المتلقّي، والمستوى العادي هو الذي يعتمد النّحو التّقعيدي في تشكيل عناصره، كما يعتمد اللّغة في تنسيق هذه العناصر، وثمرة التّرابط بين ما يقول به النّحاة، وما يقول به اللغويّون ظهور مثاليّة اللغة في استخدامها المألوف، وهي مثاليّة افتراضيّة أكثر منها تطبيقيّة [٥] .

وعلى هذا " فالانزياح ظاهرة أسلوبيّة، ومكوّن من أخطر عناصرها ومكوّناتها، لسبب بسيط أنّه لا يستمدّ منزلته، ولا تصوّره شأن غيره من وضعه في الخطاب الأصغر – النّص –، بل يستمدّ هذه المنزلة من خلال علاقته بالخطاب الأكبر – اللغة –، وهو الأهمّ ..، إنّه وبكلّ بساطة خروج التّعبير عن السّائد أو المتعارف عليه قياساً في الاستعمال، رؤية ولغة وصياغة وتركيباً ... كذلك نقول عن الانزياح: إنّه سمة أسلوبيّة تجمع بين الاختراق، والتّوازن، الصّدور، والتّلقّي، مبدأ الاستبدال، ومبدأ الاختيار، جماليّة المماثلة، وجماليّة المعارضة، بنية اللّغة المحايدة، وبنية اللّغة المشحونة المحايثة " [٦] ، ولكنّ المشكلة التي واجهها الأسلوبيّون في هذا المجال

---

[٢] أبو حاتم، د. مولاي علي . مصطلحات النّقد العربي السّيميائي والإشكاليّة والأصول والامتداد، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٢٧٠ .

[٣] ينظر : ربابعة، موسى . الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنّشر والتّوزيع، الأردن، ٢٠٠٢م، ص٤٨ .

[٤] ينظر : ويس، د. أحمد محمد . الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٣٧-٤٧ .

[٥] ينظر : عبد المطلب، محمد . البلاغة الأسلوبيّة، مكتبة لبنان، الشّركة المصريّة العالمية لوجمان، مصر، د.ط، د.ت، ص٢٦٨ .

[٦] اليافي، د. نعيم . أطياف الوجه الواحد (دراسات نقديّة في النّظريّة والتّطبيق)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٧م، ص٩١-٩٢-١٠٣ .

هي معيار الانزياح، وكيفيّة معرفته، كونه مفهوماً معقّداً تشارك في تحديده عوامل عدّة، فهو متغيّر لا يخضع لمعيار محدّد [٧] .

ما نودّ الإشارة إليه أنّ الإشكاليّة حول مصطلح الانزياح امتدّت إلى قضيّة تحديد معيار الانزياح، وهذا ما أشار إليه الدّكتور أحمد ويس من خلال عرضه لمعظم آراء الأسلوبيين في تحديد معيار الانزياح، مع تبيان الصّعوبات التي قد تقف عائقاً أمام كلّ طرح، وحسبنا أن نعرّج على بعضها، لعلّنا نخرج منها بمعيار مشترك .

فأكثر الأسلوبيّين راحوا يبحثون عن المعيار أكثر ما يبحثون في اللّغة العاديّة أو في اللغة العلميّة، وهذه جميعاً (أي اللغات) تفتقر إلى سمات اللغة الفنيّة، وبالتّالي يمكن عدّها معياراً للانزياح، بيد أنّ الصّعوبة التي تواجه هذه العمليّة هي إشكاليّة تحديد النّمط العادي للغة، وكيفيّة تمييز اللغة العاديّة من اللغة الفنيّة، فإن قلنا " إنّ النّمط العادي إنّما يحدّده الاستعمال، فإنّ مفهوم الاستعمال نفسه نسبي، ولا يمكن الدّارس من مقياس موضوعي صحيح " ، لأنّ اللّغة الشّائعة كثيرة الاستعمال في عصر قد لا تكون كذلك في عصر سابق، وهذا ما يستدعي الاستئناس بالمصادر القديمة، في عمليّة تحليل النّصوص، فضلاً عن الإلمام بأعراف تلك الفترة، لأنّ الجهل بها يُفضي بالباحث إلى اللّبس وإساءة الفهم، وبالتّالي فنحن أمام خطر جسيم، من شأنه أن يقلّل من قيمة الانزياح، لارتباطه بعصر محدّد لا يجاوزه، لأنّ الأصيل منه هو ما قاوم سطوة الزّمن أطول وقت ممكن .

وهناك من اتّخذ النّثر العلمي معياراً لتحديد الانزياح، النّثر الأقلّ اهتماماً بالأغراض الجماليّة، الذي يكون فيه الانزياح قليلاً، إن لم يكن منعدماً، وهذا يندرج تحت ما أسماه رولان بارت (الدّرجة الصّفر)، فالعمليّة يمكن أن تكون أشبه بمستقيم يمثّل طرفاه قطبين : قطب نثريّ خال من الانزياح، وآخر شعريّ يصل فيه الانزياح إلى أقصاه، وكلّما ابتعدنا عن الأوّل باتّجاه الآخر، ازدادت درجة الانزياح، فمعيار الانزياح على هذا النّحو نثر العلماء، ولا غرو فإنّ الأشياء بضدّها تتمايز، ولكن ما يؤخذ على هذا الاقتراح، أنّ جعل الشّعر نقيضاً للنّثر أمر لا يخلو من المبالغة، لأنّ أيّ شعر لابدّ من أن يتضمّن عناصر تقترب من النّثر، إن لم تك نثريّة حقّاً، وهي إلى ذلك مفيدة بوصفها شكلا يظهر به الانزياح، ويتّضح .

وثمّة معيار آخر للانزياح يعوّل به على القارئ، وهو أن يعتمد الباحث الأسلوبيّ على أحكام يطلقها نفر من القرّاء، ممّن لهم دربة في قراءة هذا الجنس الأدبيّ أو ذاك، فتكون له ركيزة ينطلق بها، ومنها إلى دراسة موضوعيّة، لكن ممّا لا يخفى على أحد أنّ تباين الأذواق لابدّ أن يفضي إلى تعدّد الأحكام، وهذا ما يحول دون الدّراسة الموضوعيّة في التّحليل، كما أنّ عامل الزّمن له تأثير غير يسير في هذا المعيار، وبالمقابل هناك معيار داخلي للانزياح يمتاز عن المعايير السّابقة، وهو السّياق، أي أنّ الانزياح – ليس كلّ انزياح – يتحقّق من خلال السّياق الذي يرد فيه، فالكلمة لا معنى لها خارج السّياق الذي تظهر فيه، بل قد يتغيّر معناها إذا وضعت في سياق آخر، والسّياقات كثيرة في هذا المجال، منها السّياق اللغوي، والسّياق العاطفي، وسياق الموقف، والسّياق الثّقافي، وكلّها مفيدة في تحديد الانزياح، ولكن السّياق اللّغويّ أجدرها بأن يكون معياراً ... .

[٧] كابانس، جان لوي . النّقد الأدبي والعلوم الإنسانيّة، تر : فهد عكام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ص١٠٩ .
[٨] المسدي، عبد السّلام . الأسلوبية والأسلوب، دار سعاد الصّباح، القاهرة، ط٤، ١٩٩٣م، ص١٠٤ .
[٩] ينظر : ويس، أحمد محمد . الانزياح من منظور الدّراسات الأسلوبيّة، مجد المؤسسة الجامعيّة للنّشر والتّوزيع، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٢٩-١٤٢ .

وبعد سرد الآراء التي حاولت تحديد معيار الانزياح، يمكننا القول: إنّ " المعيار في الانزياح هو اللغة العلميّة العاديّة في قواعدها من جهة، وفي مباشرتها، وتقريرها من جهة أخرى .

أجل اللغة هي المعيار، شريطة أن ندرك أمرين، أو نعي أمرين، أوّلهما حركة المعيار، واختلافه، أو تطوّر مفهومه، على الأقل من ثقافة إلى ثقافة، ومن زمن إلى زمن، وثانيهما حركة الأساليب اللغويّة، وتغيرها من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان " [١] .

ثانياً : الانزياح التّركيبي :

إنّ أيّة جملة في العربيّة – كما هو معروف لدينا – تتكوّن من بنيتين متكاملتين يُملّكانها معناها، وهما البنية الظّاهريّة أو السّطحيّة، والبنية التّحتيّة أو العميقة، وكلّ تغيير في البنية الظّاهريّة من شأنه أن يؤثّر في البنية العميقة، ويحرف الدّلالة عن مسارها .

فإن أسبقنا القول بأنّ الانزياح بصورته العامّة خروج على التّعبير السّائد والمألوف، نخصّص، فنقول : إنّ الانزياح التّركيبي خروج على القواعد النّحويّة التي قعّدها النّحاة، على اعتبار أنّ اللغة الأدبيّة موسومة بعقوقها وشذوذها، فهي مستعصية على التّقعيد، فللشاعر أو الأديب ما ليس لغيره من حريّة تأليف العبارة، وتلاعب بالألفاظ، وتجاوز ما لا يمكن تجاوزه، ولكن هذه الحريّة مقيّدة ومحدودة بضوابط تجعل حلّ رموز رسالته ممكناً، إنّه يشكّل قانوناً ينتهك القانون ... فلكي نبني جملة محمّلة بالمعنى لا يكفي أن نستخرج كلمات من القاموس، ونضعها الواحدة بعد الأخرى، فقد تعطي معنى من قبيل المصادفة، ولكن هذا الاحتمال باطل من النّاحية العمليّة، ويرى جاكبسون أنّ العبارة تكون ذات معنى إذا أمكن عرضها على معيار الحقيقة، وفي رأيه أنّ العبارات النّحويّة ينطبق عليها ذلك [١] .

أ- مخالفة تراتبيّة الجملة : (التّقديم والتّأخير) :

يحتلّ مبحث التّقديم والتّأخير أهميّة بالغة في الدّرس البلاغي، وله خطر عظيم في تغيّر الوجهة الدّلاليّة للكلام، كما أنّه ينمّ على فهم العرب للغة، وتفنّنهم في نطقها، ومن المعروف أنّ لكلّ جملة في العربيّة نظاماً نحويّاً مطّرداً تسير عليه، فالفعل مثلاً يكون تالياً للفاعل متقدّماً على المفعول، والصّفة متأخّرة عن موصوفها .

ولعلّ أكثر تمثّل للانزياح النحوي يكون في التّقديم والتّأخير، ولاسيّما في اللغة العربيّة التي تمكّن من حريّة التّصرّف في بنيتها التّركيبيّة كونها لغة معربة، ولكن قسّم أهل العربيّة اللّغة إلى قسمين لتنظيم حريّة التّصرّف حيث هناك " رتبة محفوظة يجب فيها تقديم جزء من الجملة على جزء آخر، ورتبة غير محفوظة تعبّر عن حريّة جزء الجملة، أو الباب النّحوي في موقعه، من حيث التّقديم والتّأخير ... [والرّتبة غير المحفوظة] هي التي تعطي المتكلّم، أو الكاتب، أو الشّاعر حريّة التّعبير " [١] ولكن قد يتجاوز الشّاعر الرّتبة غير المحفوظة إلى الرّتبة المحفوظة من باب الفرادة، ولكن التّقديم والتّأخير في الرّتبة غير المحفوظة أكثر شيوعاً في الإبداع الأدبي، يكاد لا يخلو منه نص أدبي، ولذلك فقد حظي بعناية كبيرة من اللّغويين والبلاغيّين والنّقّاد، ولعلّ بذور ذلك الاهتمام أوّل ما ظهرت عند سيبويه، فقد حاول تلمّس السّر وراء التّقديم عند العرب [٣] ، وحصر الغاية

---

[١٠] اليافي، د. نعيم . أطياف الوجه الواحد (دراسات نقديّة في النّظريّة والتّطبيق)، ص٩٢ .

[١١] كوين، جون . بنية لغة الشّعر، تر د. أحمد درويش، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٣م، ص١٢٨-١٣٠ .

[١٢] جطل، د. مصطفى . نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثّاني والثّالث للهجرة، مطبعة جامعة حلب، د.ط، ١٩٧٩-١٩٨٠م، ص٤٩٨ .

[١٣] ويس، د. أحمد . الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي، ص١٦٣ .

من التّقديم في الأهمّيّة، والعناية، يقول : " وكأنّهم إنّما يُقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً، يهمّانهم ويعنيانهم "[١٤] .

أما ابن جنّي، فيُدخل بحث (التّقديم والتّأخير) ضمن ما أسماه (شجاعة العربيّة)، وعلى الرّغم من أنّها لفتة مهمّة منه، فإنّ الطّابع الذي وسم دراسته للتّقديم في (الخصائص) طابع نحوي صرف لم يلتفت فيه إلى جماليّات التّقديم وغاياته، فهو مثلاً يرى ما رآه سيبويه في تقديم المفعول به، إذ هو للعناية والاهتمام فقد، يقول : " ذلك أنّ المفعول قد شاع واطّرد في مذاهبهم، كثرة تقدّمه على الفاعل حتى دعا ذلك أبو علي إلى أن قال : إنّ تقدّم المفعول على الفاعل قسّم برأسه، كما أنّ تقديم الفاعل قسمٌ أيضاً قائم برأسه، وإن كان تقديم الفاعل أكثر .. (فصار) تقديم المفعول لمّا استمرّ وكثر كأنّه هو الأصل وتأخير الفاعل كأنّه أيضاً هو الأصل "[١٥] ، ونخلص من هذا الكلام ما يليْ :

أ- المفعول هو بمنزلة الفاعل من حيث شيوع تقديمه، ولذلك فليس ينبغي أن يكون في تقديمه ميزة ما، مثلما أنّ لا ميّزة في تأخيره عنه .

ب- أنّ الشّيء إذا كثر تردّده، فقد ميزته، وقلّ الشّعور بتأثيره، أو قلّ تأثيره، وبالتّالي لم يجد للتّقديم ميّزة ولا فضل معنى ، ولم يُشر إلى جماليّة تُذكر، ولكنّ الأمر اللافت للانتباه أنّ منْ يطّلع على كتابه (المحتسب) المتأخّر زمنيّاً يجد أنّه قد طوّر رأيه في أمر التّقديم والتّأخير، إذ صبّ اهتمامه اهتماماً كبيراً على بلاغة تقديم المفعول به[١٧] .

ينطلق ابن جنّي في بحثه من مسلّمة نحويّة، وهي أنّ المفعول فضلة تلي الفاعل، فهي إذاً أقلّ قيمة وشأناً، ولكنّه حين يُقدّم يغدو محور اهتمام مقدّم على الاهتمام بالفاعل، يقول : " ينبغي أن يعلم ما أذكره هنا، وذكر أنّ أصل وضع المفعول أن يكون فضلة ، وبعد الفاعل كـ (ضرب زيداً عمراً)، فإذا عناهم ذكر المفعول قدّموه على الفاعل ... فإن ازدادت عنايتهم به قدّموه على الفعل النّاصب، فإن تظاهرت العناية به، عقدوه على أنّه ربّ الجملة، وتجاوزوا به حدّ كونه فضلة (إلى أن يقول)، وأسندوا بعض الأفعال إلى المفعول دون الفاعل البتّة، وهو قولهم: أولعت بالشّيء، ولا يقولون: أولعني به كذا ... وهذا يدلّ على شدّة عنايتهم بالفضلة، لأنّها تجلو الجملة، وتجعلها تابعة في المعنى لها "[١٨] .

أمّا الإمام عبد القاهر الجرجانيّ، فقد قرّر قواعد التّقديم والتّأخير، وبيّنها أفضل بيان، يقول : " هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التّصرّف، بعيد الغاية، ولا يزال يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر، فتجد سبب أن ما راقك، ولطف عندك، أن قُدّم فيه شيء، وحوّل اللّفظ عن مكان إلى مكان "[١٩] .

فضلاً عن ذلك نجده يزري على النّحاة نظرتهم إلى التّقديم والتّأخير، لقصرهم أمره على العناية فحسب، فهو يقول : " وقد وقع في ظنون النّاس أنّه يكفي أن يُقال : إنّه قدّم للعناية،، ولأنّ ذكره أهمّ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهمّ ؟ ولتخيّلهم ذلك قد صغر أمر التّقديم والتّأخير، وهوّنوا الخطب فيه،

[١٤] سيبويه . الكتاب، تح : عبد السّلام هارون، دار القلم بالقاهرة، د.ط، ١٩٦٦م، ص٣٤ .
[١٥] ابن جني، أبو الفتح عثمان . الخصائص، تح : محمّد علي النّجّار، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ط، د.ت، ص٢٩٥-٢٨٩ .
[١٦] ينظر : ويس، د. أحمد . الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي، ص١٦٦-١٦٧ .
[١٧] ينظر : ويس، د. أحمد . الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي، ص١٦٧ .
[١٨] ابن جني، أبو الفتح عثمان . المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، تح : علي النّجدي ناصف، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية، القاهرة، د.ط، ١٣٨٦هـ، ٦٥/١ .
[١٩] الجرجاني، عبد القاهر . دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ك٢، ١٩٧٨م، ص٨٣ .

حتّى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبّعه، والنّظر فيه ضرباً من التّكلّف، ولم ترَ ظنّاً أزرى على صاحبه من هذا " ، بل لم يقف الجرجاني عند هذا، ولكنّه أشار إلى مواطن الرّوعة والجمال اللذين أحدثهما التّقديم والتّأخير، ونرى ذلك من خلال تعليقه على قول ابن المعتزّ :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدّنانير

يقول معلّقاً على البيت السّابق : " الاستعارة على لطفها وغرابتها إنّما تمّ لها الحسن، وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخّى في وضع الكلام التّقديم والتّأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ... وإن شككت فاعمد إلى الجارّين والظّرف، فأزل كلّاً عن مكانه الذي وضعه الشّاعر فيه، فقل : سالت شعاب الحيّ بوجوه كالدّنانير عليه، حين دعا أنصاره، ثمّ انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ؟ وكيف تُعدم أريحيتك التي كانت ؟ وكيف تذهب النّشوة التي كنت تجدها " .[١]

بعد أن عرضنا آراء ثلاثة من كبار النّقّاد واللّغويين الذين عُنوا بمسألة التّقديم والتّأخير، كان حريّاً بنا أن نعرّج على موقف نظريّة الانزياح من التّقديم والتّأخير، ولعلّ ذكر (نظريّة الانزياح) يستدعي إلى الذّهن (جون كوين) الذي أفرد في كتابه (بناء اللغة الشّعريّة) بحثاً أسماه (ترتيب الكلمات)، وسمّى كوين الانزياح الذي يقوم على التّقديم والتّأخير بـ (القلب)، وقد ميّز في النّعت أربع حالات :

– الصّفات المستعملة عادة بعد الموصوف، من مثل العلاقات والألوان، فنحن نقول : الكلب الأسود، وليس : الأسود الكلب .

– صفات تأتي عادة قبل الموصوف، وهي صفات قليلة يمكن حصرها في مثل : جميل، كبير .. .

– صفات يمكن أن تأتي قبل الموصوف، ويمكن أن تأتي بعده مع احتفاظها بالقيمة نفسها، مثل : حادثة مروّعة، أو مروّعة حادثة .

– صفات تختلف قيمتها حسب موقعها، من مثل : طفل قذر و قذر طفل .

وقد ميّز كوين بين نوعين من النّعوت : تقويميّة تعبّر عن الكميّة والنّوعيّة، وأخرى غير تقويميّة، ووجد أنّ الانزياح في النّعوت التّقويميّة ضعيف، وأنّ الاهتمام يجب أن يكون في النّعوت غير التّقويميّة، ورأى أنّ قلب النّعت ليس إلاّ مثالاً واحداً على الانزياح النّحوي، كما أشار إلى الصّفات التي تتميّز بها الصّفة عن الاسم، وهي أوّلاً : أنّ الاسم قائد، والصّفة مقودة، أو تابعة، أي أنّها تأخذ خصائصها النّوعيّة، والعدديّة، لا من ذاتها، ولكن من الاسم الذي تتعلّق به، ثانياً : يقبل الاسم دخول أدوات التّعريف، أمّا الصّفة، فلا، (وهذا الأخير خاصّ بالفرنسيّة)، ويستشهد كوين على أهميّة التّقديم والتّأخير ببيت من أشهر الشّعر الفرنسي: (تحت قنطرة ميرابو يجري السّين)، يقول لو قلنا : (السّين يجري تحت قنطرة ميرابو)، لاختلف المعنى، ثمّ يتساءل: لماذا التّركيب الأوّل أكثر شاعريّة من الثّاني، ويردّ ذلك لمخالفته الاستعمال الشّائع .[٢]

ب– الامتداد التّراصفي : (الإيجاز والإطناب) :

هناك دستور يُقاس عليه الكلام في العربيّة، حيث يكون اللفظ مساوياً لأصل المعنى، وهذا ما يُسمّى بالمساواة، أمّا إذا زاد التّعبير على قدر المعنى كان إطناباً، وإن نقص كان إيجازاً، ولكلّ اعتبارات خاصّة، وهذا ما سنفصّل القول فيه في هذا الفصل .

---

[٢٠] المصدر السابق، ص١٠٨ .
[٢١] الجرجاني . دلائل الإعجاز، ص٩٩ .
[٢٢] ينظر : كوين، جون . بناء لغة الشّعر، ص٢١٤-٢٢٢ .

أ- الإيجاز :

الإيجاز هو جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل الذي يفي بالغرض، مع الإبانة والإفصاح، أي هو تأدية المعنى بأقل من متعارف الأوساط، مع فائدتها بالغرض، كقوله تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾(الأعراف، ٥٤)، هاتان آيتان استوعبتا كلّ شيء في الوجود، أمّا إذا لم يفِ اللّفظ بالمعنى المعهود، كان الإيجاز إخلالاً، وحذفاً رديئاً [٣] [٢] .

فظاهرة الإيجاز قديمة، وهي غاية بذاتها، يستدعيها المقام، فلم يكن الإيجاز يوماً وسيلة كما يظنّ بعضهم، يقول الجاحظ موضّحاً معنى الإيجاز : " ولو أنّ قائلاً قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟، لظننت أنّه يقول : الاختصار، والإيجاز ليس يُعنى به قلّة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طوبار، فقد أوجز " [٤] [٢] .

وقد قسم البلاغيّون الإيجاز إلى قسمين : إيجاز حذف، وإيجاز قِصَر .

إيجاز الحذف :

هو أن تحذف جزءاً من الكلام الذي نعبّر به عن المعنى المراد، من دون أن يخلّ بالفهم، وقد يكون المحذوف كلمة أو جملة، مع وجود قرينة تدلّ عليه، كدلالة الحال أو المقال أو العقل أو العادة أو الصّناعة النّحويّة .

حذف الكلمة : قد يكون المحذوف كلمة، وهو كثير، وله مواضع متعدّدة، وسنقتصر على ذكر الموضع مع الأمثلة :

- حذف المبتدأ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾(الأنبياء، ٢٦) ، أي هم عباد مكرّمون .

- حذف الخبر : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾(الرعد، ٣٥) أي وظلّها دائم .

- حذف الفاعل : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾(القيامة، ٢٦) أي الرّوح .

- حذف المفعول به : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾(الأعراف، ١٥٢) أي الذين اتّخذوا العجل إلهاً .

- حذف حروف المعاني :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطّعوا رأسي لديك وأوصالي [٥]

- حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾(يوسف، ٨٢) أي أهل القرية .

- حذف المضاف إليه : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(الروم، ٤)، أي من بعد ذلك .

---

[٢٣] ينظر : الهاشمي، أحمد . جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح : يوسف الصّميلي، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٩٦-١٩٧ .

[٢٤] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر . الحيوان، تح : عبد السّلام هارون، ط٢، ١٩٦٥م، ٤٤/١ .

[٢٥] القيس، امرؤ، ديوان امرئ القيس، شرح عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م، ص ١٣٧.

– حذف الجار والمجرور : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾(العنكبوت، ٤٥)، أي من كلّ شيء .

– حذف الموصوف : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾(الصافات، ٤٨) ، أي حور قاصرات الطّرف .

– حذف الصّفة : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾(قريش، ٤) ، أي من جوع شديد .

– حذف الشّرط : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران، ٣١) ، أي فإن تتبعوني .

– حذف جواب القسم : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾(الفجر، ١–٥)، تقدير الجواب : لتعذّبُنَّ .

– حذف الحال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾(الرعد، ٢٣) ، أي قائلين : سلام عليكم .

أمّا حذف الجمل، فلا تكاد تجده إلاّ في كتاب الله، ذلك أنّ الجملة ذات فائدة مستقلّة، وحينما تُحذف، فإنّ ذلك سيحدث خللاً في المعنى، ونقصاً في الغرض المقصود، فلا يستطيع أحد أن يرتّب كلامه، بحيث إذا حذفت منه جمل مستقلّة يؤدّي الغرض المراد [٢٦] .

إيجاز القصر :

وهو النّوع الثّاني من أنواع الإيجاز، وهو تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني، وقيل : هو تضمين العبارات القصيرة معانيَ كثيرة من غير حذف، وقيل أيضاً : هو الذي لا يمكن التّعبير عن معانيه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدّتها [٢٧] ، وهذا النّوع كما يقول ابن الأثيرٌ [٢٨] : " وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً، وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد في كلام بعض البلغاء، فإنّما يوجد شاذّاً نادراً، ويكثر ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى " [٢٩] ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة، ١٧٩)، كلام قليل يُراد به كثير، أي إذا قُتل القاتل امتنع غيره عن القتل .

والإيجاز له مراتب كثيرة وهو على صلة وثيقة بالتّقديم والتّأخير ولكنّه يحتاج إلى دقّة ملاحظة، وتأمّل في الكلام لنعي طريقة نظمه، وأسرار تركيبه، وهذا ما أشار إليه الجرجاني في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(الأنعام، ١٠٠)، يقول : " فانظر الآن إلى شرف ما حصل من المعنى بأنّ ما قدّم الشّركاء، واعتبره، فإنّه ينبّهك لكثير من الأمور، ويدلّك على عظم شأن النّظم، وتعلم به كيف يكون الإيجاز به ؟ وما صورته ؟ وكيف يزداد في المعنى من غير أن يزداد في اللّفظ ؟ إذ قد ترى أن ليس إلاّ تقديم وتأخير، وإنّه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى، ما إن حاولته مع تركه لم يحصل لك، واحتجت إلى أن تستأنف له كلاماً، نحو أن تقول : وجعلوا الجنّ شركاء لله، وما ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجن ولا من غيرهم، ثمّ لا يكون له إذا عقل من كلّ من الشّرف والفخامة، ومن كرم الموقع في النّفس، ممّا تجده له الآن، وقد عقل من هذا الكلام الواحد " [٢٩] .

---

[٢٦] ينظر : عبّاس، فضل . البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٩٨٥م، ص٤٥٩-٤٦٧ .
[٢٧] ينظر : عتيق، عبد العزيز . علم المعاني، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ص١٤٧ .
[٢٨] ابن الأثير، نصر الله محمّد عبد الكريم أبو الفتح ضياء الدّين . المثل السّائر، مطبعة حجازي، القاهرة، د.ط، ١٩٣٥م، ص٢١٧ .
[٢٩] الجرجاني، عبد القاهر . دلائل الإعجاز، ص٢٢٢-٢٢٣ .

ب- الإطناب :

ونحن في دائرة الامتداد التّراصفي للجمل لابدّ من الوقوف مليّاً على بعض الأغراض التي يفيدها الإطناب، لعلّنا نستشعر ما يحدثه من جماليّة، ونفع في الكلام، حيث إنّ كلّ أسلوب بلاغي يؤدّي غرضاً بيانيّاً، ويضفي فائدة جماليّة في الكلام، وقبل ذلك نودّ الإشارة إلى تعريف الإطناب، متمثّلين الفرق بينه وبين الإيجاز والتّطويل، ولعلّ ابن الأثير يتصدّى لهذه المهمّة، حيث يقول : " إنّ مثال الإيجاز، والإطناب، والتّطويل مثال مقصد يسلك إليه في ثلاثة طرق، فالإيجاز أقرب الطّرق الثّلاثة إليه، والإطناب والتّطويل هما الطّريقان المتساويان في البعد إليه، إلاّ أنّ طريق الإطناب تشتمل على منزه من المنازه لا يوجد في طريق التّطويل " [٣٠] .

فالإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، وإلاّ وقعنا في التّطويل، فإن لم تكن في الزّيادة فائدة يُسمّى (تطويلاً)، إن كانت الزّيادة غير متعيّنة، ويُسمّى (حشواً)، إن كانت الزّيادة متعيّنة [٣١] .

أمّا جون كوين، فقد أسهب في حديثه عن الإطناب من خلال الصّفة، إذ ماز بين الصّفة والنّعت، " فالصّفة والنّعت كلاهما على التّساوي بموصوف أو منعوت، ومهمّة كلّ منهما أيضاً هي إضافة فكرة ثانويّة إلى الفكرة الرّئيسة، لكنّ الصّفة ضروريّة لا غنى عنها، ولا يمكن بأن نقول علاقتهما طائرة، أمّا النّعت، فعلى العكس من ذلك لا يأتي غالباً إلاّ أداة لتقوية الجملة، أو لتنشيط المقال، وقد نجد علاقتهما بالمعنى غالباً طائرة إطناباً " [٣٢] ، كما يُقدّم كوين مثالين لتوضيح الصّورة بين الصّفة الخالصة، والنّعت الذي هو إطناب [٣٣] .

١- الرّوح الحزينة تضفي حزناً من لون ما على أكثر الموضوعات بهجة .

٢- الموت الشّاحب يركل بقدميه أبواب الفقراء والملوك على التّساوي .

لو حذفنا الصّفة من الجملة الأولى (حزينة) لم يبق للجملة معنى، أمّا إذا حذفنا الصّفة من الجملة الثّانية (شاحب)، فيبقى المعنى كما هو، فالصّفة تؤكّد قيمتها التّحديديّة الخالصة، وإلاّ أصبحت إطناباً، أي إن لم نحصل على النّتيجة السّابقة، كانت الصّفة إطناباً، وبالتّالي تعجز عن أداء الوظيفة التّحديديّة، ولنأخذ مثالاً : الأفيال الخشنة تذهب إلى أرض الميعاد

فالأفيال الخشنة تعبّر في وقت واحد عن الكلّ، وعن الجزء، فعلى المستوى النّحوي تشير الأفيال الخشنة ضرورة إلى صنف من أصناف الفيل، لكنّها على المستوى المعجمي تشير إلى كل أصناف الفيل، فالجزء إذاً، هنا، مساوٍ للكلّ [٣٤] .

وللإطناب أغراض عدّة لابد من ذكر بعضها، وأهمّها :

١- **الإيضاح بعد الإبهام** : فللإيضاح بعد الإبهام أثر في النّفس، لأنّ المعنى يظهر بصورتين مختلفتين الأولى : مبهمة، والثّانية : مفّصلة موضّحة للأولى من جهة، كما أنّها تكمل لذّة العلم من جهة أخرى، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾(طه، ١٢٠) ،

---

[٣٠] ابن الأثير. المثل الثّائر، ص٢١٧-٢١٨ .
[٣١] ينظر : الهاشمي، أحمد . جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص٢٠٢ .
[٣٢] كوين، جون . بناء لغة الشّعر، ص١٦١ .
[٣٣] كوين، جون . بناء لغة الشّعر، ص١٥٩-١٦٨ .

فأنت تترقّب، ويتشوّف فؤادك إلى معرفة الوسواس، إنّ في ذلك إجمالاً، فلابدّ من تفصيل، فتأتي تتمّة الآية، قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد، وملك لا يبلى .

كما يرد الإيضاح بعد الإبهام فيما يجيء في بابي نعم وبئس، وكذلك في باب التّوشيع، " وهو أن يؤتى في عجز البيت الكلام غالباً بمثنّى مفسّر باسمين، ثانيهما معطوف على الأوّل "، ومنه قول البحتري [٣٤] :

ومتى يُساعدنا الوصالُ ويومُنا يومانِ يومُ نوى ويوم صدود

٢- **ذكر الخاص بعد العامّ** : كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾(البقرة، ٢٣٨) ، فلقد ذُكرت الصّلاة الوسطى مرّتين، فهي داخلة في (الصّلوات)، وذُكرت مرّة أخرى تنويهاً، وتعظيماً لها .

٣- **التّكرير للفائدة** : من أسباب الإطناب التّكرار لفائدة، وتختلف باختلاف السّياق، فقد يكون لتأكيد إنذار وردع، أو تبكيتاً، أو للحثّ على شكر نعمة من النّعم .. نحو قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(الرحمن، ١٣) .

٤- **الإيغال** : وهو ختم البيت الشّعري بكلمات يتمّ المعنى من دونها، ولكنّ الشّاعر يأتي بها لنكتة ولغرض، إذاً هو لفظ زائد على ما قصده الشّاعر، يتمّم به قافيته، ويؤدّي به معنى، فإذا كان اللفظ لإتمام القافية، ولا يفيد معنى، فليس من الإيغال، ومن الإيغال قول امرئ القيس [٣٥] :

كأنّ عيون الوحشِ حول خبائنا وأرحلنا الجزعُ الذي لم يُثقّبِ

الشّاعر أنهى التّشبيه عند الجزع لكنّ القافية لم تنتهِ فأضاف (الذي لم يُثقبِ) .

٥- **الاحتراس** : من أسباب الإطناب الاحتراس، ويُسمّى التّكميل كذلك، وهو المحافظة على المعنى من كلّ ما يفسده، ويغيّره، أي هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، ومنه قول طرفة بن العبد البكري مادحاً قتادة [٣٦] :

أبلغ قتادةَ غير سائِلِه منه الثّوابَ وعاجلَ الشّكمِ

فسقى بلادك غيرَ مُفسدها صوبُ الغمام وديمةٌ تهمي

ففي البيت الثّاني (الدّيمة) هي المطر الكثير، فاحترس – طرفة من خلال الدّعاء، حتّى لا يُفهم أنّ هذا المطر سبب في الفساد والإغراق – بقوله (غير مفسدها) .

٦- **التّتميم** : وهو أن يُؤتى بكلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة لنكتة، فالكلام، هنا، لا يوهم شيئاً آخر غير الذي يريده المتكلّم، وإنّما يكون التّتميم لفائدة بيانيّة، ونكتة بلاغيّة، يقول زهير مادحاً هرم بن سنان [٣٧] :

إن تلقَ يوماً على علاّته هَرِماً

---

[٣٤] البحتري . ديوان البحتري، تح : حسن كامل الصّيرفي، دار المعارف، ط٢، د.ت، ٦٩٨/٢ .

[٣٥] ديوانه، ص٧٨ .

[٣٦] البكري، طرفة بن العبد . ديوان طرفة بن العبد البكري، اعتنى به عبد الرّحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م، ص٨٢ .

[٣٧] ابن أبي سلمى ، زهير : ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٣٨ .

تلقَ السّماحةَ منهُ والنّدى خُلُقا

فقوله (على علاّته) تتميم جيّد، فالمعنى يتمّ من دونه، ولا يوهم تركه خلاف المقصود، ونكتته ظاهرة، فهو يقول : إنّ السّماحة والنّدى طبيعة فيه، هذا إن تلقه على علاّته، فكيف إذا لقيته وكان مُتأهّباً للقائك، مُستعدّاً له .

ج- الالتفات :

لقد أسبقنا القول : بأنّ اللغة الشّعريّة هي خروج على اللغة الوضعيّة وعلى المألوف، وهو ما أسميناه (بالانزياح)، وتمثّل هذا الخروج بمظاهر عدّة، على المستوى الأفقي لتراتبيّة الجمل، ولعلّ الالتفات أحد هذه المظاهر، فهو ظاهرة بلاغيّة ناتجة عن مخالفة المطابقة بين الضّمائر، أي نقل الكلام من أحد أساليب التّكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى أسلوب آخر .

فليس يعدم من يروم التّنقيب عن ظاهرة الالتفات في ثنايا كتب النّقد والبلاغة أن يجمع غير قليل عن مفهوم الالتفات، ولعلّ الأصمعي أوّل من أشار إشارة ظاهرة إلى مصطلح (الالتفات) [٨] ولكن من دون تعليل لوروده، وذلك من خلال ما رآه من التفاتات جرير، حيث يقول جرير [٩] :

أتنسى إذ تودّعنا سُليمى بفرع بشامة سُقي البشام

فقال الأصمعي : " ألا تراه مُقبلاً على شعره، ثمّ التفت إلى البشام فدعا له " ، وتتوالى هذه النّظرة إلى موضوع الالتفات عند غير الأصمعي من النّقّاد، فكثيرون هم الذين تحدّثوا عنه، ولكنّهم أضافوا وتوسّعوا في الحديث، ومنهم الزّمخشري الذي رأى أنّ بلاغة الالتفات ماثلة بما فيه من مبالغة، وتحريك لنشاط السّامع، يقول : " فإن قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت المبالغة "، ثمّ إنّ " الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السّامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد " ، على أنّ الزّمخشري يرى أنّ وراء الالتفات فضلاً عن ذلك غايات معنويّة أخرى، وآية ذلك نراه عندما يقف عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾(الأنبياء، ٩٢-٩٣)، يذكر أنّ الأصل فيها (تقطّعتم)، إلاّ أنّ الكلام حرف إلى الغيبة عن طريقة الالتفات، كأنّه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، كما يتوزّع الجماعة الشّيء، ويقتسمونه، فيطير لهذا نصيب، ولذلك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً، وأحزاباً شتّى، ثمّ توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم [٤] [٢] .

أمّا ابن الأثير، فقد كان أكثر تعمّقاً في بحث الالتفات، يقول فيه : " وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهة تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النّوع من الكلام خاصّة، لأنّه ينتقل فيه

[٣٨] ينظر : ويس، أحمد محمد . الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي عند العرب، ص١٧٢ .
[٣٩] جرير : ديوانه، شرح محمّد بن حبيب، تح : نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، ط٣، ٢٠٠٩م، ٢٧٩/١ .
[٤٠] القيرواني، ابن رشيق . العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، تح : محمّد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٦٣٩ .
[٤١] الزّمخشري . الكشّاف، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥، ١٢/١، ٢٦٦/٢ .
[٤٢] الزّمخشري . الكشّاف، ١٠٥/٣ .

عن صيغة إلى صيغة، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل، أو من مستقل إلى ماضٍ، أو غير ذلك "[٤٣] ، وقد قسّم ابن الأثير الالتفات إلّى ثلاثة أقسام : الرّجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، الرّجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى الفعل الأمر، الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي، وقد أورد ابن الأثير لكلّ قسم من هذه الأقسام شواهد من الشّعر أو من القرآن الكريم[٤٤]

لقد طال وقوف ابن الأثير على ظاهرة الالتفات، فقد أكّد كلّ الالتفات له فائدة يحتّمها السّياق، وهذه القائدة هي التي دفعت إلى استخدام الالتفات، أي ليس هناك غاية واحدة من الالتفات بشكل عام، وإنّما تتوقّف الفائدة على موقعها في الجملة أو في السّياق .[٤٥]

الفصل الثّاني : الجانب التّطبيقي (دراسة تحليليّة نصيّة للانزياح النّحوي في قصيدة كفى بك داء للمتنبي)

يقول المتنبي في كافور الإخشيدي سنة ست وأربعين وثلاثمئة :[٤٦]

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافِيا

وحَسبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

تمنّيتها لمّا تمنّيتَ أن ترى

صديقاً فأعيا أو عدوّاً مُداجيا

إذا كنت ترضى أن تعيشَ بذلّةٍ

فلا تستَعِدنَّ الحُسامَ اليمانيا

ولا تسطيلنَّ الرّماحَ لغارَةٍ

ولا تستَجيدَنَّ العِتاقَ المَذاكيا

فما ينفعُ الأسدَ الحياءُ منَ الطّوى

---

[٤٣] ابن الأثير. المثل السّائر، ٤/٢ .

[٤٤] ينظر : ويس، أحمد محمّد . الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي، ص١٧٧ .

[٤٥] ينظر : الخطيب، د. أحمد مبارك . الانزياح الشّعري عند المتنبي (قراءة في التّراث النّقدي عند العرب، دار الحوار، اللاذقيّة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٥٨ .

[٤٦] المتنبي، أبو الطيب . ديوان أبي الطّيب المتنبي، شرح العبكري، دار الكتب العلميّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٨٦ .

ولا تُتّقى حتّى تكونَ ضَواريا

حَببتُكَ قَلبي قَبلَ حُبّكَ من نأى

وقد كان غَدّاراً فكُن لي وافيا

وأعلمُ أنّ البينَ يُشكيكَ بَعدَهُ

فَلَستَ فُؤادي إن رأيتُكَ شاكيا

فإنَّ دُموعَ العينِ غُدرٌ بربّها

إذا كُنّ إثر الظاعنينَ جَواريا

إذا الجود لم يُرزَق خلاصاً من الأذى

فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقيا

وللنّفسِ أخلاقٌ تدلُّ على الفتى

أكانَ سخاءً ما أتى أم تساخيا

أقلَّ اشتياقاً أيّها القلبُ ربّما

رَأيتُكَ تُصفي الودَّ من ليس جازيا

خُلقتُ ألوفاً لو رحلتُ إلى الصّبا

لفارقتُ شيبي موجعَ القلبِ باكيا

ولكنَّ بالفُسطاطِ بحراً أزرتُهُ

حياتي ونُصحي والهوى والقوافيا

وجُرداً مددنا بين آذانها القَنا

فبتنَ خِفاقاً يتّبعنَ العَواليا

تماشى بأيدٍ كُلّما وافتِ الصّفا

نَقَشنَ بهِ صدرَ البُزاةِ حَوافيا

وتنظُرُ من سودٍ صوادق في الدُّجى

يَرينَ بعيدات الشّخوصِ كما هيا

وتنصِبُ للجِرسِ الخَفيّ سوامِعاً

يَخلنَ مُناجاةَ الضّميرِ تناديا

تُجاذبُ فُرسانَ الصّباحِ أعنّةً

كأنّ على الأعناقِ منها أفاعيا

بعزمٍ يسيرُ الجسمُ في السّرجِ راكباً

به ويسيرُ القلبُ في الجسمِ ماشيا

قواصِدَ كافورٍ توارِكَ غَيرِهِ

ومن قصَدَ البحرَ استقلّ السّواقيا

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانِهِ

وخلّت بياضاً خلفَها ومآقيا

تجوز عليها المحسنينَ إلى الذي

نَرى عندهم إحسانَهُ والأياديا

فتىً ما سرينا في ظُهورِ جدودنا

إلى عصرهِ إلاّ نُرجّي التّلاقيا

ترفّعَ عن عونِ المكارمِ قدرُهُ

فما يفعلُ الفعلاتِ إلاّ عَذاريا

يُبيدُ عداواتِ البُغاةِ بلُطفهِ

فإن لم تبِدْ منهم أبادَ الأعاديا

أبا المِسكِ ذا الوجهُ الذي كُنتُ تائقاً

إليهِ وذا الوقتُ الذي كُنتُ راجيا

الدّراسة :

لاشكّ في أنّ المتنبّي فيلسوف عصره، فهو بحقّ مالئ الدّنيا، وشاغل النّاس، إذ امتاز بجرأته على اللّغة، وغلوّه في تقدير ذاته، وهو من أكثر شعراء العربيّة عدولاً عن الأصول، وأعظمهم تجاوزاً للمألوف، وربّما لم يبلغ مبلغه إلا باللّغة، فقد لعب على أوتارها، ولاسيّما في الكافوريّات، وتمثّل عدوله بانزياحات شتّى، أهمّها الانزياح النّحويّ الذي جعل شعره نسيجاً محتمل الضّدين، فنصوصه الفنيّة يتحرّر فيها الدّال من سيطرة المدلول الواحد (المعجمي)، ممّا يؤهّله لأن يكون بؤرة لإنتاج دلالات لا نهائيّة، ولذلك علينا أن نبحث عن الكائن الخفيّ داخل النّص الشّعري الذي تكمن فيه جدليّة الحضور والغياب، ويتمّ بوساطة ذلك إنتاج المعنى من جهة، وتأجيله من جهة أخرى، وعندها يغدو النّص فضاءً مفتوحاً على دلالات هاربة تشير إليها الانزياحات، ولاسيّما النّحويّة منها، وفي تأمّل متبصّر لهذه القصيدة نتبيّن أنّ الانزياح النّحوي يشكّل عاملاً رئيساً في تغيّر الدّلالة ، يخاطب المتنبّي في مقدّمة القصيدة نفسه، ويشير إلى ندمه على قصد كافور، مضمّناً كلامه أنّ رؤيته كرؤية الموت، فالمتأمّل لهذا البيت في سياق الامتداد التّراصفي لا يعدم بعض الانزياحات المهمّة التي تخفي وراءها غير قليل من المعاني التي لم يُرد المتنبّي التّصريح بها، فالمقام، هنا، يستدعي الحذف الفنّي الذي يستغني عن بعض البنى، والمفردات، سعياً وراء التّلميح لا التّصريح الذي هو أبلغ أثراً، وأعمق دلالة، وهو نوع من أنواع

الإيجاز (إيجاز القصر)، إذ ضمّن بيته عبارات كثيرة بكلام قليل، فهو يختصر كثيراً من الأحداث والمواقف التي مرّ بها، فجاء كلامه مكثّفاً أراد من خلاله أن يُعطينا فحوى الكلام، لأنّه لو فصّل في ذلك، لعرّض حياته للخطر، فأتى بهذا المجاز في بداية القصيدة، رعاية لمقتضى الحال (لكلّ مقامٍ مقال)، وبذلك أصبح كلامه حكمة تجري على ألسنة النّاس حتّى يومنا هذا، ثمّ يتابع كلامه بشيء من التّوضيح، إذ نجد تفسيراً للدّاء المذكور في البيت الأوّل، فيزول بعض الغموض بالانزياح المحقّق في البنية التّراصفيّة السّطحيّة، فهو لم يلجأ إلى الإطناب، وإنّما أعطت الصّفات (صديقاً – عدوّاً مداجياً) البيت وسابقه المعنى، وأكّدت قيمتها التّحديديّة الخالصة، فلو حذفناهما لهُدمَ المعنى المراد ؛ لأنّ المطلع يشير إلى تمنّي الموت، وسبب ذلك عدم وجود الصّديق، وليس كلّ صديق، وإنّما الصّديق المصافي، وكذلك العدوّ الموافق، ويعني بالعدو المداجي كافور، وجعل قرينة وصفه بالمداجي الذي أصل مادّته الظّلمة، كأنّه يخبر عن عروض ذلك التّمنّي، عندما عنّ له قصد كافور، والمتنبّي يعدل عن التّقريريّة والمباشرة، فيضمّن أبياته التّحمّس، ليظهر بما في باطنه أنّه في ذلّ لكافور، وهو ممّا لا يرتضيه لنفسه، ونتبيّن ذلك باستمراريته في سرد التّراكيب الإضافيّة المتمثّلة في الصّفات، كما أنّ الحذف في البيت –وإن كان نقصاً في المبنى– فإنّه يزيد المعنى (فلا تستعدنّ الحسام اليمانيا)، انزياحاً آخر في هذا البيت ؛ إذ استعمل النّهي موضع الاستفهام، (فلا تستعدنّ الحسام اليمانيا)، لتكون الدّلالة أبلغ، والمراد بذلك: إذا رضيت أن تعيش ذليلاً، فماذا تصنع بالسّيف القاطع ؟.

إنّ الانزياح التّركيبيّ الأفقيّ كان من شأنه أن يُحدث انزياحات أخرى على المستوى العمودي التي أدّت بدورها إلى تغيير الدّلالة، وما نلحظه في هذه الأبيات أنّ كلّ انزياح نحويّ يصحبه انزياح أسلوبيّ، فالشّاعر عدل من الأسلوب الإنشائيّ الذي بدأ به قصيدته إلى الأسلوب الخبري، وذلك لأنّه وصل إلى درجة لا يمكن السّكوت عليها، والمتنبّي تجاوز تركيبة الجملة المألوفة، فقدّم المفعول به (الأسد) على الفاعل (الحياء)، عندما توتّرت حاله، بسبب ما ابتُلي به عند كافور، إذ أخذ يحثّ نفسه على الوقاحة مع كافور لاستخلاص ما يتقوّت به، وأنّه أيضاً لا يمكن إلاّ بأن يكون طالبه مفترساً غير مكترث من حشمته، كما أنّ التّقديم في هذا الموضع أعطى للاستعارة لطفاً، وجماليّة تُشعر القارئ بالحسن والأريحيّة، بالإضافة إلى ما أحدثه الانزياح من أثر بالغ الأهميّة على المستوى الإيقاعيّ للنّص .

ولقد عمد المتنبّي إلى تقنيّة أسلوبيّة أسهمت في تلوين السّياق في مجال استخدام الضّمائر، وما تحيل عليه من وظائف لغويّة يفيدها ترجيح الخطاب في النّص بين الغيبة والتّكلّم والإخبار، ممّا يشعر باعتماده على ما يعرف بالالتفات بأنواعه، فهو يلتفت من الأسلوب الإنشائي (كفى بك) إلى الأسلوب الخبري (تمنّيتها لمّا تمنيت) تارةً، ومن ضير المخاطب إلى الغائب تارة أخرى، ولا نعدم ما في هذا الانزياح من مبالغة، وتطرية لنشاط المتلقّي، وشدّ لانتباهه، فالبيت الخامس (فما ينفع الأسد الحياء من الطّوى ...) فيه نبرة حادّة مفاجئة تختلف عن وتيرة الكلام السّابق، لأنّها مرتفعة مقارنة بما قبلها، وهو ما أشرنا إليه سابقاً، فبالإضافة إلى الجماليّة التي أحدثها هذا الانزياح، نلتمس تخفّي المتنبي وراء لغته، وهذا ما جعل منها نسيجاً محتمل الضّدّين ، وبعدوله عن الأفعال المضارعة (ينفع – تُتقى – تكون) إلى الماضي (حببتك) يُحدث انفصالاً بين الحاضر في حضرة كافور، واسترجاعه الماضي الذي قضاه في كنف سيف الدّولة، كما أفاد الانزياح في تراتبيّة الجملة على المستوى السّطحيّ المتمثّل بالحذف (اسم كان)، والتّقديم والتّأخير (فكن لي وافياً)، التّكثيف والتّعريض

معاً، فهو يُعرّض بسيف الدّولة الذي كان غدّاراً، ويتّهم قلبه بالغدر أيضاً، وعدم الوفاء، إن حنّ إلى من فارقه، وهو سيف الدّولة .

ويستمر الشّاعر في حديثه مع نفسه، مُخاطباً جوارحه، متّهماً إيّاها بالغدر، ولاسيّما عيونه التي تذرف الدّموع على الغادرين، وهو في هذه التّركيبة التي استدعاها السّياق (فإنّ دموع العين غدر بربها) يُحمّل البيت علاقة ثنائيّة تناقضيّة خفيّة تصل إلى درجة التّضاد، فالوفاء للغادر غدر بصاحب الدّموع (المغدور)، وهذا ما يفصّله بطريقة تكثيفيّة بقوله :

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

فلا الحمدُ مكسوباً ولا المال باقيا

إذا ما استطعنا أن نصل إلى المعطى المضمونيّ للبيت، نجده يزخر بالدّلالات التي تموضعت فيه من خلال التّكثيف المتمثّل في انزياحات عدّة، لعلّ أهمّها حذف الفعل في بداية البيت لدلالة ما بعده من الكلام عليه، فهو بحذف الفاعل وباختيار الفعل (يُرزق) المبني للمجهول يحيل بيته إلى حكمة عامّة مع تضمينه خصوصيّة الموقف، أراد أن عطايا سيف الدّولة رزحت تحت أذيّة انتظار المواعيد، وأنّ جوده الظّاهر كان من لسانه لا من يده، وما يؤكّد ما ذهبنا إليه البيت الذي يليه، فالمقصود نفس بعينها وهي نفس سيف الدّولة، وهذا ما جعله يقدّم شبه الجملة (وللنفس) على المبتدأ (أخلاق)، كما أنّ المبتدأ هنا نكرة، فالنّفس هي التي تُلحق الأذى، ولذا عمد إلى تقديمها لتخصيصها بهذا الفعل، فالمتنبّي في هذا البيت وصل إلى حدّ الإفراط في العتب، لكنّه لم يصرّح به . وما يفتأ المتنبي يسجّل انحرافاً عن النّسق أيضاً، فهذه الأضرب من الالتفاتات من شأنها تلوين الخطاب بغية التّأثير في السّامع، وفيها من جهة ثانية علامة أسلوبيّة خاصّة بمنشئ القول، ولاسيّما عندما يعمد إلى اختراق الأنساق المعروفة، ليعبّر عن تجربته الفريدة في إطار تسمح به اللّغة، إذ ينتقل بخطابه من ضمير إلى آخر، ليترتّب عليه انزياح أسلوبيّ، ليحرّك نشاط السّامع، ويبعده عن الملل والفتور، لينتبه القارئ إلى أهمّيّة ما يريد قوله، ولكي يضمّن هذا البيت خصلة ممدوحة في جبلّته، كونه مجبولاً على الوفاء (خُلقت ألوفاً)، كما أسهم الإطناب (لفارقت شيبي موجع القلب باكياً) في تخصّص مفارقة الشّيب بالبكاء إلى الإيماء إلى ما اكتسبه من ابتلائه بالهمّ والغمّ ، إنّ تراكم الانزياحات الدّاخليّة في النّص أنتجت انزياحاً مقطعياً، فالتفت الشّاعر من الحديث عن ذاته، وعن سيف الدّولة إلى الحديث عن كافور، الذي أصبح البطل الذي تدور حوله الأحداث، إذ يُخيّل للقارئ للوهلة الأولى أنّ المتنبي جعل من كافور بطلاً أسطوريّاً، ولكنّ الانزياحات في النّص حمّلته دلالات مناقضة للفهم السّطحيّ، وهذا ما أراده المتنبّي، فهذا التّحوّل إضافة إلى ما في البيت الأول – الذي هو مدخل الحديث عن كافور – من مخالفة لتراتبيّة الجملة المألوفة يجسّد لنا صورة، ويجعلها أكثر حساسيّة، وجماليّة، وكأنّها صورة فوتوغرافيّة، كما أنّ التّقديم والتّأخير أفاد تخصيص المكان الذي يُقيم فيه كافور، وهو الفسطاط، ثمّ إنّ عطفه (جرداً) على ما قبلها في البيت السّابق، والانزياحات المتحقّقة في هذا البيت تجعل كلامه أكثر شاعريّة ، فلو قلنا (مددنا القنا بين آذان الجرد)، لأدركنا ما أحدثه تحقق الانزياح من أريحيّة وحسن شعريّة، كما توحي بصورة خفيّة تقلب المعنى رأساً على عقب، إذ ربّما أراد بالجرد المعاني المجرّدة التي ضمّنها أبياته، وأدمجها في مدائحه، فكنّى بمدّ القنا بين آذانهنّ توجيه قلمه إلى تحريكها للظّهور،

وأفاد بالمصراع الثّاني سهولة انقياد المعاني المطلوبة في هجائه إلى أقلامه، فكان الشّطر الثّاني بمنزلة الصّفة التّحديديّة لـ (الجرد) التي أدّت وظيفتها الخالصة ، ويستطرد الشّاعر في الحديث عن هذه الجرد تاركاً الحديث عن كافور مستخدماً الإطناب ليعطي نصّه تكثيفاً دلاليّاً، وبُعداً جماليّاً أنتج صوراً بلاغيّة (الكناية)، فالبيت – كما في القصيدة – له وجهان ظاهريّ وباطنيّ، وهذا الأخير هو الذي يقصده المتنبّي، فالمعنى الأوّل واضح، أمّا المراد، فهو الإخبار عن كمال تأثير هجائه في الصّخرة الصّماء (يريد بها كافور)، كما أضاف الحال (حوافياً)، لتؤدّي دورها في السّياق من خلال ما تحمله من مبالغة، ثمّ يستمر في وصف الجرد (وينظرون من سود صوادق في الدّجى ....)، فيحذف الموصوف، ويبقي على ذكر الصّفة (صوادق)، لتقوّي الجملة، وتنشط المقال .

فالانزياحات في هذا البيت الماثلة في البنية التّراتبيّة للجملة أدّت إلى تكثيف الدّلالة، وتوليد الصّور المتداخلة التي تتمّ على انزياحات دلاليّة خفيّة، فالجرد (المعاني) تنظر من عيون صوادق، فهي حادّة النّظر تبصر من بعيد (معنى مجازيّ)، والمقصود هو صاحب هذه المعاني (المتنبّي) ربّما دلّ حذف الموصوف على قصده الخفيّ (ينظرن من عيوني السّود الصّوادق) هذا من جهة، كما توحي العلاقة الإسناديّة (المضايفة) في قوله : بعيدات الشّخوص بدلالة محوريّة في النّصّ من جهة أخرى، وهي أنّ الشّخص إذا أُبصر من بعيد صَغُر في العين، وممّا لا شكّ فيه أنّ المقصود هو كافور .

ويؤخّر المفعول به (سوامعاً) للتّشويق، لكي يبقى السّامع مشدوداً بانتظار الشّيء المنتصب، فأراد الشّاعر له أن يبقى متيقظّاً، ليخبره بأمر مهمّ، فكما أنّ هذه الجرد توصف بحدّة البصر، فإنّها أيضاً توصف بحدّة السّمع، فهي إذا سمعت أخفى ما يكون نصبت آذانها، يُضاف إلى ذلك العلاقات الإسناديّة المجاوزة حدود المألوف للغة، (يسير القلب ..)، فنراه يُسند الفعل إلى غير فاعله، ليكون هذا الانزياح أساساً لانزياح من نوع آخر (دلالي)، مشكّلاً صورة بلاغيّة تدعّم المعنى المراد، وتقوّيه .

ويستمر بناء الفضاء الدّلاليّ استناداً إلى التّركيب النّحوي الذي اختاره الشّاعر، كما في علاقة المضايفة (إنسان عين زمانه)، فلو أخذنا الكلام بالمعنى الظّاهر، لأقررنا بوضوح المدح، ولكن عندما نتعمّق بهذا التّركيب يتبيّن لنا أنّ المتنبي بطّن مديحه بهجاء، وهو بذلك يُكنّى عن شدّة سواد كافور عندما أضافه إلى العين، وهذه العلاقة تشكّل مع علاقة المضايفة التي تليها معنى مجازياً، إذ المقصود كافور، والمكانة التي نالها في ذلك الزّمن .

ويلتفت المتنبي التفاتة معنويّة من الحديث عن الجرد إلى الحديث عن كافور مع انزياح تركيبي آخر، متمثّلاً بالإيجاز (إيجاز الحذف)، ليُكثّف القول (رفع فتىً بتقدير هو قبلها)، ثمّ يؤكّد المعنى الباطن ويُتاح إمكانيّة احتمال النّقيض في البيت الذي يليه، من خلال تأخير الفاعل (قدره) إلى ما بعد شبه الجملة، فالتّأخير في المبنى في هذا الموضع تأخير للمعنى، وما يُدعّم هذا القول ورود كلمة (فعلات) التي غالباً ما ترد في سياق الذّم، كما في قوله تعالى : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(الشعراء، ١٩) وبعدها يعمد المتنبي إلى الالتفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلّم (أبا المسك)، لينقل السّامع من دائرة التّلميح إلى دائرة التّصريح بذكر اسم كافور المرمّز أيضاً، فهو يذكر المسك، ويريد النّقيض، يُكنّى عن سواده ونتنه .

وهكذا يستمرّ المتنبي في التّلاعب باللغة، وترتيب الكلمات، بما يتناسب والسّياق، فاتّخذ من هذه الانزياحات النّحويّة ما يشبّه القناع، يتخفّى خلفه، ليقول ما يريده ، من خلال إنتاج الدّلالات الخفيّة .

خاتمة :

وهكذا نخلص إلى أنّ الانزياح النّحوي من الظّواهر البلاغيّة المهمّة في الدّرس اللغوي والبلاغي، فهو يجعل النّص مفتوحاً ينبض بكنوز ودلالات خفيّة، ويحرّر الدّال من سيطرة المدلول الواحد، كما يمكّن القارئ من السّبح في فضاءات دلاليّة متنوّعة، وهو عامل مهمّ من العوامل التي تشي بحيويّة اللغة ومرونتها، وبالتّالي يُعدّ الانزياح النّحوي خروج التّعبير عن المألوف في التّركيب، وفي الصّياغة، ولكنّه خروج إبداعيّ جماليّ، يهدم لكي يبني، بطريقة يصعب ضبطها، طريقة هاربة دوماً .

ولكي يُحقّق الانزياح النّحوي القيمة الفنيّة والجماليّة المبتغاة لابدّ له من الخضوع لمعايير تبعده عن الغموض والإبهام، فهو عمليّة هدم للنّص، وإعادة لهيكليّته من جديد، ليكون بدوره أساساً تقوم عليه انزياحات أخرى تجعل النّص الأدبي أكثر غنى وانفتاحاً، وعلى الرّغم من ذلك، فالهدم يكون منظّماً، فالسّياق هو من يحدّد نوع الانزياح، والقيمة المترتبة عليه، وعلى هذا فلا يمكن لأيّ ناقدٍ أو باحث أن يحدّد مسبقاً الجماليّة، أو الفائدة التي يحدثها الانزياح النّحويّ، لأنّ مهمّة القارئ تتجسّد في البحث عنها، إضافة إلى الكشف عن العلاقة الجدليّة بين حقلي النّحو والبلاغة .

وخير دليل على استحكام السّياق بالانزياح النّحوي ما رأيناه في قصيدة المتنبّي التي تناولناها بالتّحليل، فأدركنا أنّ أبا الطّيب المتنبّي لم يكن يرغب أن يقول بطريقة مباشرة، ولا أن يسمّي الأشياء بأسمائها، إذ حفلت قصائده بالتّعبير الكنائيّ، لتغدو عنده متنفسّاً تحرّره من المعايير والقيود، ومن خلال ذلك أغنى الطّاقة الدّلاليّة للعبارة، بما شاهدناه من استخدام الالتفات، والإطناب، والإيجاز، بالإضافة إلى التّقديم والتّأخير، و هذا كلّه إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ بالدّرجة الأولى على حيويّة اللغة العربيّة ومرونتها .

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- ابن الأثير، *نصر الله* محمّد *عبد الكريم أبو الفتح ضياء الدّين* . المثل السّائر، مطبعة حجازي، القاهرة، د.ط، ١٩٣٥م .

٢- البحتري . *ديوان البحتري*، تح : حسن كامل الصّيرفي، دار المعارف، ط٢، د.ت .

٣- البكري، طرفة بن العبد . *ديوان طرفة بن العبد البكري، اعتنى به عبد الرّحمن المصطاوي*، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م .

٤- *الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر* . الحيوان، تح : عبد السّلام هارون، ط٢، ١٩٦٥م، .

٥- الجرجاني، عبد القاهر . *دلائل الإعجاز*، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ك٢، ١٩٧٨م .

٦- جرير : ديوانه، *شرح محمّد بن حبيب*، تح : نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، ط٣، ٢٠٠٩م .

٧- جطل، مصطفى . *نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثّاني والثّالث للهجرة*، مطبعة جامعة حلب، د.ط، ١٩٧٩-١٩٨٠م .

٨- ابن جني، أبو الفتح عثمان . الخصائص، تح : محمّد علي النّجّار، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ط، د.ت .

٩- ابن جني، أبو الفتح عثمان . *المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها*، تح : علي النّجدي ناصف، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية، القاهرة، د.ط، ١٣٨٦هـ .

١٠- أبو حاتم، د. مولاي علي . *مصطلحات النّقد العربي السّيميائي والإشكاليّة والأصول والامتداد، اتّحاد الكتّاب العرب*، دمشق، ٢٠٠٥م .

١١- الخطيب، د. أحمد مبارك . *الانزياح الشّعري عند المتنبي (قراءة في التّراث النّقدي عند العرب*، دار الحوار، اللاذقيّة، ط١، ٢٠٠٩م .

١٢- ربابعة، موسى. *الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها*، دار الكندي للنّشر والتّوزيع، الأردن، ٢٠٠٢م.

١٣- الزّمخشري . الكشّاف، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥ .

١٤- ابن أبي سلمى ، زهير : *ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس*، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م.

١٥- سيبويه . الكتاب، تح : عبد السّلام هارون، دار القلم بالقاهرة، د.ط، ١٩٦٦م .

١٦- عبّاس، فضل . *البلاغة فنونها وأفنانها*، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٩٨٥م .

١٧- عبد المطلب، محمد . *البلاغة و الأسلوبيّة*، مكتبة لبنان، الشّركة المصريّة العالمية لوجمان، مصر، د.ط، د.ت .

١٨- عتيق، عبد العزيز . *علم المعاني*، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠.

١٩- القيرواني، ابن رشيق . *العمدة في محاسن الشّعر وآدابه*، تح : محمّد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م .

٢٠- القيس، امرؤ . *ديوان امرئ القيس، شرح عبد الرّحمن المصطاوي*، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.

٢١- كابانس، جان لوي . *النّقد الأدبي والعلوم الإنسانيّة*، تر : فهد عكام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م .

٢٢- كوين، جون . *بنية لغة الشّعر*، تر د. أحمد درويش، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٣م .

٢٣- المتنبي، أبو الطيب . *ديوان أبي الطّيب المتنبي، شرح العبكري*، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م .

٢٤- المسدي، عبد السّلام . *الأسلوبية والأسلوب*، دار سعاد الصّباح، القاهرة، ط٤، ١٩٩٣م .

٢٥- ابن منظور. *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٢٦- الهاشمي، أحمد . *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع*، تح : يوسف الصّميلي، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٢٧- ويس، د. أحمد محمد . *الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي*، ط٢، ٢٠٠٩م .

٢٨- ويس، أحمد محمد . *الانزياح من منظور الدّراسات الأسلوبيّة*، مجد المؤسسة الجامعيّة للنّشر والتّوزيع، ط١، ٢٠٠٥م.

٢٩- اليافي، د. نعيم . *أطياف الوجه الواحد (دراسات نقديّة في النّظريّة والتّطبيق)*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.